الفصل الثالث
مدرسة الشام

تمهيد

امتاز الشام بجمال الطبيعة وغناها؛ ولذا كان مطمعًا لجيرانه ومكانًا للحضارات القديمة كالفينيقيين والكلدانيين والمصريين والعبريين واليونانيين والرومانيين، وقد تركت كل حضارة آثارها على أرضه، حيث أورثهم الفينيقيون حروف الكتابة، والعبريون التعاليم الإلهية، واليونان المذاهب الفلسفية، والرومان النظريات الفقهية.

و لم يكن العرب بمنأى عن المطمع في هذا البلد الغني وإنما عرفوه تجارًا وقاطنين نزحوا إليه من قبائل سليح وغسان ولخم وجذام وذبيان وطي وكندة وحمير، واتجهت إليه آمالهم وأهدافهم التي برزت في تكوين إمارة حمص وبطرة في مفتتح القرن الأول قبل الميلاد، وإمارة الغساسنة في القرن الخامس الميلادي.

ولكثرة العرب بين سكانه ونشاطهم وسريان لغتهم كان الشام قبيل الفتح أشبه بنصف عربية بمن حكمها من الغسانيين في الجنوب والوسط والتنوخيين في الشمال، ومن كان ينزلها من القبائل والبطون العربية في أرجاء تدمر والفرات وغزة[1] وصح بحكم تداخل الأجناس والحضارات لكوريتوس أن يقول: فاندمج فيه كثير من التواريخ في بقعة ضيقة كهذه.

ولكننا نلحظ مع هذا أن تتابع الأديان السماوية القديمة على مساحته أحل العقائد الدينية محل النحل العقلية . وقلل من ذيوع النظريات الفلسفية عما كان

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشى ج٤: ٧٣، محمد كرد على خطط الشام ج١: ١٠٥، ٥٥ ج٤: ١٤.

obeikandl.com

الأمر عليه عند الفارسيين وفي العراق، ولتعوده على تجدد الأديان واحدًا تلو الآخر، ولما لاقى من ظلم الرومانيين، وللتفرق بين مسيحي الشام وبين مسيحي الرومان أقبل الشاميون على الإسلام بعد أن تم فتحه في عهد الخليفة الثاني عام (١٧هـ) بعد محاولات متقطعة ابتدأت من وقعة دومة الجندل في عهد الرسول عقب الهجرة بتسعة وأربعين شهرًا[١].

كما نلحظ أيضًا أن رسوخ الإسلام فيه نأى به عن الفرق الضالة، و لم تَحُول عواطفه إلى عداء فكري أو حربي على غرار ما وجدناه في فرق العراق ومذاهبها السياسية الحادة في الخروج والشرود والصراع الدموي.

و لم يكن دين الشاميين ممزوجًا بالأفكار الفلسفية ومناهجها كما فعل الفارسيون، وبالتالي فقد كانت الحركة الروحية فيه سمة من هذه السمات المتزنة التي تخلو من الأثر الأجنبي كما سيتضح لنا.

رجال البعثة العلمية ومعاونوهم ومهمتهم

تدفق الشاميون على الإسلام منذ أن استقر الفتح تدفقًا مذهلاً جعل يزيد بن أبي سفيان واليها يخبر عمر في أوائل سنة (١٨هـ) تقريبًا أن أهل الشام قد كثروا وملأوا المدائن، واحتاجوا إلى من يعلمهم ثم يقول: فأعني يا أمير المؤمنين برجال يعلمونهم[٢].

فلما وصلت الرسالة جمع الخليفة أفذاذ العلماء من الصحابة أمثال أُبي بن كعب ومعاذ وأبي الدرداء وزيد وسعد بن عبيد، وأعلمهم أن إخوانهم من الشام قد استعانوه بمن يعلمهم القرآن، ويفقههم في الدين: فأعينوني-رحمكم الله-

(١) الفتوحات الإسلامية ج١: ٢٥ – ٤٢ وخطط الشام ج١: ١٠٧ – ١١١.
(٢) خطط الشام ج٤: ١٦.

بثلاثة منكم، إن أحببتم فاستهموا، وإن انتدب ثلاثة منكم فليخرجوا[1]، فلما خرج معاذ وعبادة وأبو الدرداء أمرهم أن يذهبوا إلى حمص أولاً لاختبار الرغبة؛ لكون حمص مقياسًا لبقية البلاد لما تتصف به من التردد والاضطراب؛حتى إذا ما رضوا فليقم بها واحد، وليخرج الثاني إلى دمشق، والثالث إلى فلسطين، فأقام عبادة بحمص، وخرج أبو الدرداء إلى دمشق، ومعاذ إلى فلسطين، وظل كل منهم بمدينته حتى مات بها[2].

وبجانب هؤلاء وُجِدَ معلمون آخرون من الصحابة الذين رحلوا إلى الشام واستقروا بها، كبلال بن أبي رباح (٢٠هـ) وقد وصف بأنه العابد المتجرد وأخبر الرسول أنه سمع أقدامه على أرض الجنة، وكعياض بن غُنم الذي وليها بعد أبي عبيدة وكان رجلاً سمحًا صالحًا مات (٢٠هـ) ولم يترك مالاً ولا ولدًا، وقد أقام بها خالد بن الوليد حتى توفي بحمص (٢١هـ)، ولم يدع هذا الآخر إلا فرسه وسلاحه وغلامًا له أوصى بها لعمر.

الحال الذي جعل الخليفة الثاني يقول: لقد كنا نظن به أمورًا ما كانت، ويقول: يرحم الله أبا سليمان كان على غير ما ظننا به، وفيه براءة لخالد مما نسب إليه في سبب عزله، وما هي إلا ظنون رجع عمر نفسه عنها، ونزلها أيضًا واثلة بن الأسقع (٣٥هـ) وكان من أهل الصفة، كما ترجم ابن سعد لثلاثة عشر ومائة صحابي أقاموا بالشام؛ حتى كان آخر من مات منهم بها عبد الله بن بشر المازني (٨٨هـ)[3].

---

(١) نفسه.

(٢) خطط الشام ج٤: ١٦.

(٣) طبقات ابن سعد ج٢: ١١٢، ١١٣، ١١٦، ١٢١، ١٢٢، ١٣٣، ١١٥، والحلية ج١: ١٤٧، ١٥٠.

وإزاء هذه الأحداث والأحوال التي اتصف بها هؤلاء الصحابة ندرك النتائج الآتية:

(أ) إن الصحابة بفضل توجيه الإسلام إلى العلم وتنويره لأذهانهم، وجَّهوا قواهم إليه؛ حتى انتقلوا من ظلمات الجهل إلى أنوار العلم فجأة، ومن قيافة الأثر وحفظ النسب والاستدلال بالآثار وتعرف الأنواء والحفظ لكل مسموع، والاعتبار بكل محسوس إلى بلاغة المنطق، وتثقيف اللغة، وتصاريف الكلام، وقيافة البشر؛ حتى بلغوا في ذلك الغاية وحازوا كل أمنية[1] بفضل أذهانهم الحِداد ونفوسهم المفكرة حسبما وصف أبو عثمان الجاحظ.

(ب) وقد تنقلوا بين البلاد المفتوحة يقدمون نور العلم لكل من أسلم ويؤكدن على أن الفتح تثقيف وهداية لا استغلال وجباية ومن بين تلك البلاد أهل الشام.

إلا أنه لاحظ الصحابة عليهم التباطؤ في الإقبال على العلم الإسلامي، وكما نفهم من سياق التوجيهات التي أصدرها المعلمون لهم أن سبب التأخير عن التعلم المناسب واللائق بحال هؤلاء الأساتذة يرجع إلى استخفاف علماء الشام بعلماء الصحابة لجهلهم بهم، وإلى انصراف العامة نحو مزارعهم وتجارتهم، وانشغالهم بها عن التلقي الجيد، أو لسوء فهم الجميع بالفاتحين وعملية الفتح وحسبانها فتحً للغنيمة والثروة.

ولذا ناداهم كلٌ من أبي الدرداء ومعاذ إلى التعلم، وبيَّنا لهم فضله الذاتي وقيمته فيما يحدثه في العبد من آثار كالخشية وبيان الحلال والحرام، وأنه سلاح على الأعداء ورفعة للأقوام، وهو نافع للفرد والجماعة في كل أمر، إلى آخر ما

---

(١) خطط الشام ج٤: ١٤ — ١٥.

قال كل منهما في فضل العلم والتعلم[1]، وما قالـه أبو أمامة الباهلي (٨٦هـ) في حسن الاستماع والتبليغ.

كما أحبُ أن أؤكد على أن مهمة التعليم قامت علـى أكتـاف الثلاثـة المذكورين، وعلى أكتاف من ذكرنا من الصحابة الذين استوطنوا الشام؛ لأن أبا مسلم الخولاني (٦٣هـ) يحدثنا أنه قدم الشام (قبل سنة ١٨هـ) فنـزل مسجد دمشق فإذا فيه ثلاثون كهلاً من أصحاب رسول يتناقشون ويُسألون فيجيون[2]، ولأن أبا تميمة الهجيمي قال: قدمت الشام فإذا أنا برجل مجتمع عليه يحدث مجذوذ الأصابع، فقلت من هذا؟ قالوا: إن هذا هو أفقه من بقي على وجه الأرض مـن أصحاب رسول اللـه هذا عمرو البَكَالِي.

(ج) وما يجب أن نعلمه بعد هذا بصفة أساسية هو أن الصحابة برقة إحساسهم وزهدهم وتقللهم واجتهادهم في العبادة على نحو ما ذكرنا قرين كل واحد دعاة بالسلوك إلى هذا النمط من الصفات والفضائل.

فلا ينبغي أن نتصور أن حال بلال وخالد وواثلة وعيـاض يمـضي دون أن يترك أثرًا فيمن حولهم، وفي كل من لاقوا، كما أنهم لم يكتفوا بهذا بل ربطوا في دعوتهم إلى العلم، وحثهم الشاميين عليه بينه وبين التقوى والعمـل والزهـد إلى درجة أن ينادي أبو الدرداء قائلاً: ما لي أراكم قد أقبلتم على ما تكفل لكم به، وتركتم ما أمرتم به، ألا إن قومًا بنوا شديدًا، وجمعو كثيرًا وأحلو بعيدًا فأصـبح بنيانه قبورًا، وأملُهم غرورًا، وجمعهم بورًا، ألا فتعلموا، وعلموا، فـإنَّ العـالم

(١) انظر الحلية: ٢١٢، ٢١٣، ٢٣٩، ٢٣٠.
(٢) طبقات ابن سعد ج٧: ١١٥، ١١٨.

والمتعلم في الأجر سواء[1].

وهو ما يؤكد لنا دائمًا على أن الزهد قام في أحضان العلم، وأنه كان ثمرة الدعوة الجادة والسلوك المستقيم اللذين نهجهما الصحابة وبثوهما بين المسلمين في أنحاء البلاد المفتوحة.

وفوق هذا فإن معاذ بن جبل يتحدث عن الأنس والوحشة، وحياة القلوب، ونور البصائر، والإلهام في سياق حديثه عن فضل العلم أمام الشاميين، وكلها ألفاظ ومعان لها دلالاتها عند الزهاد ومن بعدهم الصوفية الذين ورثوا صدق هذه الأحوال.

مدى الاستجابة ونوعها

استطاع الصحابة بما أوتوا من قوة بيان، وسعة أفق علمي، وسلوك عليٍّ غاية ما يكون استقامة، أن يبعثوا الرغبة في تلقي العلم، وأن يكون سببًا في تربية عدد كبير من العلماء تربية علمية وأخلاقية.

ولا بأس هنا أن نذكر أسماء البعض؛ لما يترتب عليها من ملاحظات ونتائج قمينة بالتسجيل والتحليل، فنرى أنه من بين من اشتهر بالعلم والزهد في هذا القرن الأول أبو إدريس الخولاني، وأبو مسلم الخولاني، وسفيان بن وهب الخولاني، وعفيف بن الحارث الكندي الذي كان يتولى إمامة المسلمين إذا غاب خالد بن يزيد، فإذا أمَّ حضر الجند كأن الصلاة جمعة ليست بخرساء، ويسمع أقصى المسجد موعظته، ويزيد بن الأسود الجرسي العالم الصالح الذي كان معاوية يستسقي به ويجلسه معه على المنبر ويسأل الله ببركته فيمطرون، وكثير بن مرة الحضرمي، وقبيصة بن أبي ذؤيب (٨٦، ٨٧هـ) وكعب الأحبار، روح بن

(١) الحلية ج١: ٢١٢ – ٢١٣.

زنباغ المكنى بأبي زرعة الفلسطيني، ورجاء بن أبي سلمة الفلسطيني المحدث، وجبير بن نضير الحضرمي (٨٠هـ) وسهل بن عبد العزيز أخو عمر بن عبد العزيز.

واشتهر من علماء الشام في القرن الثاني حكيم بن عمير الشامي المجتهد في الطاعة، ونوف البكالي ابن امرأة كعب، وله شهرة في رواية أخبار العلماء والزهاد، وأخوه تُبَيْع، ومسلم بن كبيش، وخالد بن معدان(١٠٣هـ) المجتهد الخائف الثقة، وشهر بن حوشب (١١٢هـ)، والقاسم بن عبد الرحمن مولى جويرة بن أبي سفيان (١١٢هـ)، ورجاء بن حيوة (١١٢هـ)، ومكحول الدمشقي (١١٣هـ)، وعبد الله بن عامر اليحصبي (١١٨هـ)، وسعيد بن هانئ الخولاني (١٢٧هـ) والعلاء بن الحارث (١٣٦هـ)، وعمر بن المهاجر (١٣٩هـ) ومحمد بن الوليد الزمبيدي، (١٤٨هـ)، وسويد بن عبد العزيز (١٦٧هـ) والوليد بن مسلم (١٩٤هـ) وغير هؤلاء وهؤلاء ممن ذكر في كتب الطبقات[١].

وإني أدعو الباحثين أن يتأملوا هذه الأسماء بأصولها وأنسابها لنحدد معًا هوية هؤلاء الأعلام وأجناسهم وإلى من ينتسبون؟ سنجد بأدنى تأمل أنهم ينتمون إلى أصول عربية نزحت قبل الإسلام أو معه وأن نصيب الشاميين الأصليين ضئيل إذا قيس بمجموع الزهاد الذين تُرْجع أنسابهم إلى أصل عربي.

وأقول: المجموع لا الجميع لأستثني أمثال كعب الأحبار وأبناء زوجته. ومكحول ومن يشبههم ومن هنا يمكن القول: بأن نوع الاستجابة في العلم والزهد لدى أهل الشام كان أدنى منه بكثير عند العرب الذين استوطنوا معهم هذه الديار.

---

(١) ارجع إلى الجزء السابع من الطبقات الكبرى لابن سعد وخطط الشام ج٤.

ويرجع السبب في ذلك إلى تحفظ أهل الشام تجاه العرب وعلومهم أولاً ثم انشغالهم بالحروب ضد مناوئي معاوية والخارجين على الأمويين ثانيًا، وإلى انهماكهم في معايشهم وإقبالهم على الترف ثالثًا، ولعل السبب الثالث هو الأهم والأصل أو هو العنصر النشط الذي ثبط هممهم عن الزهد وأحلامهم عن العلم.

خصوصًا إذا علمنا أن تلك الحقيقة قد أبرزها حكيم استدعاه عمر؛ ليسأله عن المدن المفتوحة وأهويتها ومساكنها وما تؤثره الترب والأهوية في سكانها؛ لكي يبني عمر حكمه لهذه البلاد على أسس صحيحة يراعى فيها اختلاف المكان والزمان والجنس، فكان رد الحكيم على عمر فيما يخص الشام بأنها سحب وركام وريح وعذق، وهي مسرح خصب، ووابل سكب، كثرت أشجاره، واطردت أنهاره، ولذا فهي ترطّب الأجسام وتبلد الأحلام وتجفي الطبع، وتذهب بماء القريح، وتنضب العقول[1].

ويوافق صاحب خطط الشام هذا الحكيم على الجزء الخاص بوصف الطبيعة ونعيمها ورخائها؛ ولكنه يخالف في نوع العلاقة بين الرخاء وبين الأثر العاطفي والفكري فيقول محمد كرد علي: إنما بلد الخيال والشعر بل الهمم العلياء واستقلال الفكر[2]، ونحن من جانبنا لا نوافق هذا ولا ذاك بلا حدود، بل نرى أن الأول صدق في تقريره أن طبيعة الشام ترطّب الأجسام، وتجفي الطبع وهما أثران يحجبان الإنسان عن الانخراط في سلك الحياة الروحية عن طريق الزهد؛ لكونه يتطلب خفة في البدن تساعد على الاجتهاد في الطاعة، ورقة في الطبع تتأثر ببواعث الخوف والحب، وتستشف الرقائق من خلف الستار، وتصلح أن تكون محلاً للحقائق والمنح الربانية.

---

(١) مروج الذهب: ج١: ٢٣١.

(٢) خطط الشام ج١: ٥٣، ٥٤، ٥٥.

وإذا ما وضعنا في اعتبارنا أن صاحب هذا الرأي يصف بلدًا لخليفة فلا بد أن يراعي في وصفه السمة الجماهيرية الغالبة استطعنا أن نستنتج أن حكمه صدر بناء على النظرة العامة الشاملة لما يغلب على الشعب؛ لأنه الأمر الذي يتطلبه الحاكم؛ كي يبني علاقته مع محكوميه على أساس ما غلب لا ما كان خاصًّا، وبناء على هذا فإننا نقبل كل ما جاء في حكمه ونرى أنه لا يخدم غرض الزهد أيضًا.

أما محمد كرد علي فلما لم يكن يقرر حكمه أمام خليفة بل لباحثين أظهر النظرة الخاصة المتمثلة في سمو الخيال، والشعر والهمة، واستقلال الفكر والتي يتصف بها خواص أهل الشام لا عامتهم، وهو صادق من تلك الوجهة؛ لأن التحليق في سماء الخيال والشعر والذاتية الفكرية لا يكون إلا لمن نال سعة في الرزق. ووفرة في الرخاء؛ ولأن الرومانسية الأدبية تتبع الرقي في مستوى المعيشة، والواقعية أو الكلاسيكية تتبع غالبًا الانخفاض فيها كما هو ملاحظ في أيامنا.

وبحكم تلك النظرة فإن أرباب هذه الحياة وإن صلحت عواطفهم؛ لأن يكونوا مع الزهاد إلا أن ذاتيتهم قد تدفعهم إلى عدم التخلي عما يملكون والجود بما في أيديهم مما هو ضروري لسخاء نفس الزاهد وتربيتها.

وبالتالي فسواء اعتبرنا إجابة الحكيم لعمر، أو نتيجة محمد كرد علي فإن ما عليه الشاميون عامتهم وخاصتهم يحد من انتشار الزهد والأخذ به، وهي الحقيقة التي قررها ابن خلدون في مقدمته عندما ذكر أن الخصب له أثر على البدن والعبادة، وأن أهل البلاد المترفة يميلون للدعة والكسل، ويرغبون في الشهوات والملذات، ولا يقنعون لإشباعها إلا بالكثير على عكس أهل البدو الذين يميلون إلى الفطرة ويرغبون في الضروري اللازم لهم[1].

---

(١) المقدمة: ١٠٩، ١٠٦.

مناقشة حول أسباب ضعف الزهد

ما ذكرناه من أسباب في ضعف الزهد لدى الشاميين هي وجهة نظرنا التي تتفق إلى حد كبير مع طبيعة السكان، ومع الظروف الجديدة التي طرأت عليهم، ومع ما ورد من تحليلات جغرافية وديموجرافية حول هذا الإقليم.

ولكننا نقرأ وجهة نظر أخرى لبعض الباحثين كأحمد أمين، والدكتور الشيبي ترجع أسباب الضعف إلى الأمويين وجهلهم وترفهم وطبيعة حكمهم، ويحتجان:

(أ) بأن حكم الأمويين قام على الضغط والقهر، وهذا يحتاج إلى أبدان آكلة وأجسام أخذت من الطعام والملذات أقصى ما تشتهي.

(ب) كما يحتاج إلى الشعر والخطابة ليقوما في الدعاية مقام الصحافة لأحزابها تشييدًا بالأمويين.

(ج) ولأن نزعة الأمويين نزعة عربية جاهلية لا تتلذذ من بحث ديني عميق[1].

(د) وأن مسلكهم بما فيهم معاوية لا يتسم بالزهد لما فيه من أبهة في اللباس والطعام والشراب؛ حتى وأن عمر لاحظ هذا وانتقده وكان يقول مشيرًا إلى معاوية: هذا كسرى العرب

وقد عمد حكام بن أمية إلى طمس المعارف الإسلامية، وشوهوا كثيرًا منها مثلما كان يزعم البعض أن عليًّا لص من لصوص الفتن، وأنه قتل عمارًا، وأن معاوية أبو فاطمة امرأة النبي بنت عائشة أخت معاوية [2].

وأحب أن أقول بصفة عامة: إن هذين الباحثين قد بنوا نتائجهما على تشويه

---

(١) فجر الإسلام: ١٦٤.

(٢) الصلة بين التصوف والتشيع: ٣٠٨ — ٣٠٩.

obeikandl.com

ندرة من النصوص، وعلى أمور عامة لا ينبغي الأخذ بها عند من يتحرى الحقيقة أو ينشد الصواب، وإن أحدهما صدر حكمه بلا سعة وأناة في مادة البحث وهضمها، وإن الشيبي صدر حكمه عن مذهب سياسي يخالف ما عليه الأمويون حيث يدين بالمذهب الشيعي.

ودعونا من النقد العام لنأخذ في نقد الأسباب ونقضها سببًا تلو سبب فنقول:

أولاً: إن الادعاء بأن حكم الأمويين قام على الضغط إلى آخره، أمر يخالف الواقع والحقيقة، أما الواقع فيشهد بأن معاوية تولى إمارة الشام من قبل عمر بمحض اختيار الخليفة ونظره الثاقب، وأنه قد دام فيها إلى عام (٣٧هـ) بلا قهر، ولا حروب داخلية تتصل بتثبيت الحكم؛ حتى كانت وقعة صفين بينه وبين علي.

وفي خلال هذه الفترة كان أبو الدرداء ومعاذ يستحثان أهل الشام على العلم والزهد ويلمحان فيهم قصورًا في الميدانين، وأيضًا يدلنا الواقع على أن زوال الدولة الأموية لم يغير من الأمر شيئًا، ولم يزدد تعداد الزهاد الشاميين بعد انتقال الحكم إلى العباسيين، وتخفيف الضغط والعبء -إن صح- عن الشام، بل بقي مسلموه على حالة التحفظ من الإقبال على التقشف والمجاهدة؛ حتى صارت سمة عامة نراها في القرني الثالث والرابع وما بعدهما حيث كان هذا الإقليم أقل الأقاليم الإسلامية من ناحية عدد الصوفية، وإن كنا نقول بأمانة إن زهاده وصوفييه على قلتهم كانوا من أكثر رجال الحركة الروحية اتزانًا وبعدًا عن الإيغال إذا استثنينا السهروردي الحلبي الإشراقي المقتول، وابن عربي بعد انتقاله إليه.

أما الحقيقة: فإن أقل النظرات الحربية تدل على أن البدانة تخالف الرشاقة والخفة اللتين يجب أن تتوافرا في الجندي المحارب، وأن التقشف ومحاربة الشهوة

من المبادئ الأولى التي ينبغي أن يقهرها الجندي في نفسه قبل أن يسعى لقهر عدوه، وكذلك كان جند رسول الله ﷺ كما هو معلوم بالضرورة.

ثانيًا: والشعر والخطابة أسلوبان لا يتنافيان مع الزهد لو استطاع قائلهما أن يدرب نفسه على التقلل أو يجاهدها على نزع الحرص والشح والاتصاف بالجود والتصدق، ولقد عثر بين الزهاد والصوفية على شعراء وخطباء نطقوا بالحقيقة، ونزهوا ألسنتهم عن مزالق المدح وأغراض الشعر التقليدية، وجعلوا أناشيدهم وعباراتهم تنفيسًا عن أرواحهم وأشواقهم فحسب.

ثالثًا: إن الزعم بأن الأمويين لم يتلذذوا من بحث ديني عميق وقد شوهوا المعارف قول ينم عن جهل تام بحالة الأمويين العلمية والثقافية، وبحالة الصحابة وما وصلوا إليه من تعمق، وغوص في المعاني، وتحليل وتقسيم، وما وصلت إليه آراؤهم في مجال الاجتهاد والابتكار، والفهم الخصب، وهو طعن لا في الأمويين وحدهم وإنما في النزعة العربية عامة مما نشم معه رائحة الشعوبية تتردد على لسان أحمد أمين العربي!!.

وفوق هذا فهو زعم تدحضه الأدلة الناصعة التي تثبت أن البيت الأموي بيت ثقافة وعلم إذ يحدثنا محمد كرد أن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف الأموي هو الذي أحدث الكتابة بالخط العربي قبل الإسلام حين جلبها من الحيرة، وقيل لأبي بن سفيان بن حرب: ممن أخذت الكتابة؟ قال: من واضعها مرامر بن مرة، وكان ابنه أيضًا كاتبًا، وأول من علم بمكة الكتابة عبد الله بن سعيد بن العاص بن أمية، وقد أفدى نفسه يوم بدر بتعليم عشرة من أبناء المسلمين بالمدينة منهم زيد بن ثابت[1].

---

(١) خطط الشام: ج ٤: ١٤، ١٩.

وكان يقال لبشير بن الوليد: عالم بني مروان[1]، وكتب عبد العزيز بن مروان إلى كثير بن مرة الحضرمي بحمص وقد أدرك سبعين بدريًّا أن يكتب إليه بما سمع عن رسول الله إلا حديث أبي هريرة فإنه عندنا[2].

وسبق أن قلنا إن الذي استنجد بعمر لتثقيف الشاميين هو يزيد بن أبي سفيان، وكان معاوية مغرمًا بسمَاع أخبار العلماء والساسة والقواد الحربيين والسياسيين، ويعقد لذلك المجالس، ويجذب العلماء لهذا الغرض[3].

ونزل ابن شهاب الزهري على عبد الله بن زياد صهر هشام بن عبد الملك عشرين عامًا[4] مما يقطع بافتراء القول بأنهم ينزعون منزعًا جاهليًّا لا يستعذب البحث أو العلم.

والزعم بأنهم غيروا المعارف أو كانوا على ضعف من التدين فهو أشد تهافتًا، ويكفينا أن نرجع إلى المسعودي لنسمع منه القصة التي استند إليها الدكتور الشيبي كدليل على التحريف العلمي، يذكر صاحب مروج الذهب أن بعض أهل العلم كانوا يتناظرون في أبي بكر وعمر وعلي ومعاوية على شرائط أهل العلم، وكان بعض العامة يحضر هذا المجلس فقال: حينما ذكر اسم علي: أليس هو ابن فاطمة؟ قال أحد الجالسين: ومن كانت فاطمة؟ قال العامي: امرأة النبي بنت عائشة أخت معاوية.

والقصة في رأينا تشير إلى جوانب **الأول**: أن التباحث لدى أربابه من الشام قام على شرائطه واستوفى أركانه اللازمة ليثمر علمًا سليمًا.

---

(١) نفسه.
(٢) طبقات ابن سعد ج٧: ١٥٧.
(٣) المسعودي: مروج الذهب ج٢: هامش نفح الطيب٤٢٢ – ٤٢٤.
(٤) طبقات ابن سعد ج٧ : ١٧٥.

والثاني: أن التحريف وسوء الفهم نشأ من العامة الذين يفدون إلى مجالس العلماء لا من أصحاب الفهم والدراية.

والثالث: لا بد وأن يكون العلماء الذين يتناظرون على شرائط العلم قد صححوا لهذا العامي خطأه.

والرابع: أن خطأ البعض لا ينسحب على الجميع.

والخامس: وهو الأهم لا يجوز في عرف الباحثين أن تبنى الأحكام والنتائج العلمية على آراء العامة وأفكارهم؛ لأنها لا تمثل وجهة النظر العلمية في مجتمع ما وإلا لحكمنا على جميع الشعوب بالجهل؛ لأن عامتهم لا يتقنون المعارف ولا يصححونها.

وبناء على هذه الملاحظات يكون الدكتور الشيبي قد وقع في أخطاء جسيمة تنحصر في أنه تعمد بتر النص، وحذف أجزاء مهمة تخدم النتيجة العلمية المجردة، وما فعل ذلك إلا ليؤيد وجهة نظره الشخصية على حساب الأمانة العلمية، هذا فضلاً عن تجاوزه آراء العلماء إلى آراء العامة ليقيم حكمًا عليه.

ومما يدل على براءة الأمويين من هذا القصور الذي انتاب أهل الشام ما نجده لدى المسعودي وابن خلدون من الدفاع عنهم وعن حكمهم طوال القرن الأول تقريبًا، ويدور هذا الدفاع على محاور ثلاثة.

الأول: يرتكز على أن معاوية ما كان يعلم حال ابنه يزيد في فسقه ولو علم ذلك ما ولاه؛ لأنه أعدل من ذلك وأفضل[1] وحاشا لله لمعاوية من ذلك، ولقد تأول في بيعته لابنه هو وغيره من الأمويين حرصًا على جمع الكلمة وعدم الفرقة.

---

(١) مقدمة ابن خلدون ١٨٢ وما بعدها.

والثاني: يبدو لكل من تتبع سير الحكم وسيرة الخلفاء الأمويين أنهم كانوا يتحرون الصواب في الأمور، ويذهبون إلى الدقة في جل المسائل ومن تأمل سير هؤلاء الخلفاء والملوك واختلافهم في تحري الحق من الباطل علم صحة ما ذهبنا إليه، وأيقن أن مذهبهم في الملك لم يكن مذهب أهل البطالة والبغي إنما كانوا متحرين لمقاصد الحق جهدهم إلا في ضرورة تحملهم على بعضها مثل خشية افتراق الكلمة الذي هو أهم لديهم من كل قصد[1].

ويشهد لهذا ما علم السلف من أحوالهم واحتجاج الإمام مالك بعمل عبد الله بن مروان، ورد سليمان لبعض المظالم، ثم إعادة جميع الحقوق إلى نصابها في عهد عمر بن عبد العزيز الذي يعتبر حكمه درة توجت نهاية القرن الأول الهجري، ولعله الرجل الذي بعث على رأس المائة الأولى ليجدد الله به دين الأمة كما ورد في الحديث.

وإذا كان حال الأمويين على ما رأينا دقة وتحريًّا طوال القرن الأول فمن الذي أقعد الشاميين عن التحرك السريع إلى العلم والزهد؟ لا أرى إلا أن القصور راجع إلى أسباب تخص الشاميين أنفسهم وقد سبق سردها.

الثالث: ظل هذا الضبط للحق مع تسنمهم معالي الأمور، ورفضهم دنيئها حتى أفضى الأمر إلى أبنائهم المترفين فكانت همتهم قصد الشهوات وركوب اللذات، وذلك ابتداء من القرن الثاني الهجري، فإذا رأينا استمرار القصور في الإقبال على العلم والزهد مع بداية الانحراف الأموي فلا نقول إلا أنه استمرار لأسباب عدم ميل أهل الشام إلى هذين الفضلين دون أن يجد جديد يحفزهم عليه، بالعكس لم لا يكون تغير حكم الأمويين تأثرًا بالشاميين وأن تلك الحالة كان

---

(١) ارجع إلى مروج الذهب ج٢: ٤٢٥ ومقدمة ابن خلدون: ١٨٢ – ١٨٣، ١٧٨، ١٧٩.

عمر يخافها على العرب النازحين إلى مراتع الخصوبة كالعراق والشام، وكم كان حريصًا على أن يظل العربي في بيئة تتناسب مع تلك البيئة التي درج عليها، وفتلت قواه، ورققت عواطفه، واتقد ذهنه تحت أديمها.

رابعًا: أما ما قيل من أن نزعة الأمويين لا تتسم بالزهد ولا تشجع عليه فهو منقوض بمسلك الأمويين أنفسهم، وبعلاقتهم القائمة على الود والاحترام للزهاد والعلماء:

(أ) أما بالنسبة إلى مسلكهم الخاص فإننا نرى الجاحظ والمسعودي يسوقان لنا أخبارًا عن معاوية تتصل بسمو أخلاقه وحلمه، وإدخال الناس عليه، وسماعه للمظلومين، ورده للحقوق، وكثرة صلاته ونوافله وملازمته للطاعة وترتيله للقرآن، وعونه للفقراء، وقد ألقى في أخريات حياته كلمات تعتبر من روائع ما قيل في الزهد[1].

وأما ما يتصل بجودة ثيابه، وأبهته في الملك والقصور، واتخاذ الخدم والحجاب؛ حتى يسميه عمر بكسرى العرب فإنها تبدو في نظرنا من واقع تبرير معاوية نفسه لعمر مظاهر تقتضيها طبيعة الحكم في الشام الذي لم يألف من حكامه إلا هذا اللون من العظمة أكثر مما هي مطلب نفسي وشهوة يتطلبها معاوية.

والمظهر إذا كان لعلة، ولا يخشى منه صاحب فساد نفس، أو كان لمنفعة تعود على المسلمين فهو معفي عنه، كما أبيح استعمال الذهب في السيف والسن مع تحريمه على الرجال، وكما كان خالد بن الوليد يترك شاربه مع حث السنة على قصه فلما راجعه الرسول في فتله قال: لأرهب به عدو الله يا رسول الله، فسكت رسول الله ﷺ.

---

(١) ارجع إلى البيان والتبيين باب الزهد وانظر مروج الذهب ج٢: نفح الطيب ٤٢٢، ٤٢٤.

وكذلك سكت عمر على معاوية لاقتناعه بالأسباب التي قدمها الأمير للخليفة، ولو لم يعلم صدقه فيها لعزله لما عرفوا عنه من شدة محاسبته للأمراء؛ ولأنه ما كان يخشى ضيرًا في عزل معاوية.

ووجدت نزعة الزهد بين أرباب الأسرة الأموية نفوسًا تلقفتها واتصفت بها وتروضت عليها، نخص منهم على سبيل المثال حفيد معاوية خالد بن يزيد الذي درج بين فسق أبيه ومع هذا كان مضرب الأمثال لزهاد القصور، وكذلك كان عبد الملك بن مروان في فترة ما قبل الخلافة على وجه خاص، وسهل بن عبد العزيز (٩٩هـ) شقيق عمر بن عبد العزيز، وعبد الملك بن عبد العزيز (١٠٠هـ) الشاب الصالح الناسك الذي بلغ به الحال في قوة الزهد؛ حتى قيل إنه كان سببًا في توجيه أبيه إلى نزعة التجرد والتقلل.

ويضاف إلى هؤلاء محمد بن عبد الملك المشهور بالنسك وكثرة العبادة والمتوفى (١٣٢هـ)[1] أي عام سقوط الدولة الأموية، ومعنى هذا كله أن الأمويين لم تخلُ نفوسهم وبيوتهم من رجال اعتنقوا مسلك الزهد وطبقوه أحسن ما يكون التطبيق، وأدق ما يكون الالتزام، على عكس ما يقول أصحاب النظر العلمي القاصر.

(ب) وبجانب النزعة السلوكية الخاصة التي تخللت البيوت نجد الاحترام والتقدير لأرباب العلم والزهد ونكاد نطل بأعيننا من بعيد لنرى معاوية وهو ينحني أمام كلمات أبي مسلم الخولاني رغم ما فيها من شدة إذ يقول للخليفة: السلام عليك أيها الأجير[2] فقالوا له: بل أيها الأمير، فأصر أبو مسلم على قولته، فرد معاوية دعوا أبا مسلم هو أعلم بما يقول، ثم يعقب أبو مسلم

(١) ابن طغر: النجوم الزاهرة ج١: ٢٤١، ٢٤٣، ٢٥٧، ٢٥٨.
(٢) حلية الأولياء ج٢: ١٢٥، ١٣٠.

شارحًا عبارته بأن الأمير كالأجير إن أحسن الرعي أثيب وإلا عوقب.

وكان يقول له: يا معاوية إنما أنت قبر من القبور لك ما تفعله من خير وعليك ما تفعله من شر، وحينما حبس العطاء شهرين قال له مواجهة: إن هذا المال ليس بمالك ولا مال أبيك ولا مال أمك؛ حتى أسرع معاوية في الصرف.

وأعطاه درسًا في أفضل الطرق لتسيير دفة الحكم قائلاً له: يا معاوية ليست الخلافة جمع المال؛ ولكنها عمل بالحق وقول بالعدل، وأخذ الناس في ذات الله، ولا نبالي بكدر الأنهار ما صفت لنا رأس أعيننا وأنت رأس أعيننا، يا معاوية: إن عدلت على أهل الأرض جميعًا ثم جرت على رجل واحد مال جورك بعدلك، وقد فهم معاوية ما يعني أبو مسلم من خلاف بينه وبين عليّ فرد قائلاً: ما شاء الله كان.

كما نجد سليمان بن عبد الملك يستدعي رجاء بن حيوة (١١٢هـ) ومكحولاً (١١٢هـ) والزهري (١٢٤هـ) ليستشيرهم في أمر الخلافة بعده فلما أشاروا عليه بانتقال الخلافة من بيته لعدم وجود من يصلح إلى عمر بن عبد العزيز قبل وكتب الوصية على ذلك، وأعطاها لهم، وأمر أن يقرأها الزهري بعد موته[1].

وهذه الأحداث تقودنا إلى مكانة العلماء والزهاد في قصور الخلفاء الأمويين، والاحترام الذي كانوا يجدونه في داخلها، وما كان لهم من كلمة حق تقال، وتخضع لها جباه أعظم الخلفاء سلطة وأولهم تأسيسًا لتلك الدولة، كما اشتركوا بنظرات ثاقبة في توجيه الخلفاء إلى السبيل الأقوم الذي تدار به دفة الحكم، وإلى

(١) مروج الذهب ج٢: ٦٢٥ هامش نفح الطيب.

ما تجب أن تكون عليه العلاقة بين الحاكمين والمحكومين.

ووصل بهم الحال كما رأينا أن يشتركوا في اختيار الخلفاء وتعيينهم، وفوق هذا كله كانت دعوتهم إلى الزهد والتقلل نافذة مؤثرة، مما يقطع أن الخلفاء كانوا يحبون أصحاب هذه النزعة، ويقربونهم ويتأثرون بهم ويستعينون بآرائهم وتوجيهاتهم في أعقد المشاكل وأعسرها، ولم يكونوا على الوصف الذي وصمهم به أحمد أمين والشيبي.

خامسًا: وأخيرًا فإنه يتضح لنا من خلال البنود الأربعة السابقة بما تحوي من مناقشات ونصوص وأدلة أن أسباب قصور الشاميين عن العلم والزهد ترجع إلى أمور تخص أهل هذا الإقليم نفسه من إقبال على الترف والانشغال بثرواتهم، بجانب كثرة الحروب التي خاضوها، وبهذا سلمت نظرتنا وقصرت أنظار غيرنا على وجه الدقة واليقين.

منهج الزهاد وموقفهم من الفرق

يبدو واضحًا كما سبق في التمهيد أن إسلام أهل الشام ظل دينًا صافيًا نقيًّا عند من أقبل على التفقه فيه، واستمر كما هي العادة سطحيًّا عند أكثر العامة، وهو في كل من الحالتين غير ممزوج -عن تعمد- بأفكار سابقة أو بمعتقدات دينية أخرى، وإذا مال الجمهور هناك إلى الأمويين فلم يقلبوا هذا الميل مذهبًا سياسيًّا ذا عقيدة وتشريع جديدين كما فعل الشيعة وكما تشدد الخوارج.

ولم يكن هذا الميل سوى مجرد هوى عاطفي وتأييد عسكري دون الخوض في فلسفة هذا الشعور أو إلباسه ثوبًا فكريًّا معينًا، ومن هذه السمة العامة نستطيع أن نتبين منهج الزهاد العلمي، وما تلا ذلك من مواقفهم نحو بعض العواطف الجامحة، والفرق الناشئة.

أما الحديث عن المنهج: فإن محمد كرد علي حسبما أشرنا نبهنا إلى غلبة العاطفة واستقلال الفكر[1] لدى المثقفين من أهل الشام، وتقتضي هذه الصفة أن يكون للخيال دخل كبير في طريقة معالجة العلم، واستخراج نتائجه، وهو ما يثمر التعمق في الأسرار، ولمس جوانب العلل الخفية والأسباب الكامنة، فضلاً عن الظاهرة والواقعية، كما يؤدي إلى الضرب فيما مضى وبعد وراء القوالب، وإلى الافتراضات الكبيرة فيما هو حاضر، وإلى كثرة الابتكار للمستقبل، وإلى مس ما كمن من المشاعر، ويعمد صاحب الخيال إلى ترقيق اللفظ وتشفيفه وتحسينه، ولهذا تميزت عبارات الشاميين وأشعارهم ورمزياتهم.

وبينما تقتضي صفة استقلال الفكر التعمق في الذاتية والتحمس لها وتدعيمها، الأمر الذي يُنتج نبذ التقليد، وعدم التسليم بفكرة الغير دون تمحيصها، وهو ما يثمر التعويل على الفهم الخاص في النص، والميل الشديد نحو الاجتهاد والحرية الفكرية في كل ما يرد على الذهن، ومن هنا فإن السمة العامة لطريقة التفكير في هذه المدرسة تغلب عليها العاطفة والذاتية، وإن كنت أؤكد أن هذه السمة حكمت بمعيار ثابت لدى العلماء والزهاد هو الالتزام بالكتاب والسنة دون الخروج عنها بالعقل أو العاطفة.

وقد عبروا عن هذا التمسك بما لا يقبل الشك أو الريبة كما جاء في قول عمر بن عبد العزيز: أيها الناس إنه لا كتاب بعد القرآن، ولا نبي بعد محمد ﷺ، ألا وإني لست بقاض؛ ولكني منفذ، ألا وإني لست بمبتدع[2]، ولقد كان بقية الزهاد على وفاء لهذا الإعلان في سلوكهم وأقوالهم وفتاويهم وعواطفهم حسبما يظهر في مواقفهم المختلفة وخاصة إزاء النزعة الأموية المعادية لعلي وآل بيته،

---

(١) انظر خطط الشام ج١: ٥٥.

(٢) مروج الذهب هامش نفح الطيب ج٢: ٦٢٣.

وإزاء القدرية التي رحلت شعبة منها إلى الشام.

موقف الزهاد من العاطفة الأموية

استطاع الأمويون أن يستميلوا عواطف الشاميين إليهم؛ لأنهم حكامهم، ولكثرة الدعاية التي ذاعت بين السكان ترغب في البيت الأموي، وللأواصر التي ربطت بينهم وهم يخوضون حربًا واحدة جنبًا إلى جنب مع الأمويين ضد الإمام علي وشيعته؛ ولذا قال ثور بن يزيد الكلاعي (١٥٣هـ) عنه: لا أحب رجلاً قتل جدي[١] في صفين.

وحكم الأصمعي لتلك الأسباب أن الشام كلها أموية[٢]؛ ولكننا ندرك على وجه اليقين.

أولاً: أن الحركة الأموية عاطفة ومساندة لا مذهب وفلسفة.

وثانيًا: لا نوافق الأصمعي على أن الشام أخلص بالكلية للأمويين. وإلا لما خرج الضحاك بن قيس الصحابي عليهم بعد وفاة معاوية بن يزيد بن معاوية يدعو إلى ابن الزبير، ولم تهدأ ثورته؛ حتى كانت موقعة مرج راهط ٦٤هـ التي انتصر فيها مروان بن الحكم، وقتل الضحاك[٣].

وثالثًا: وقف الزهاد من تلك العواطف موقفًا دينيًّا معتدلاً للغاية، فلا هم في صف هؤلاء ولا ضد هؤلاء، ودفعهم اتزانهم وتمسكهم بالسنة إلى أن يحاربوا كل شطط يخرج عن حد الاستقامة المقررة شرعًا، فهذا أبو مسلم الخولاني كما ذكرنا ينهى معاوية بأسلوب المعاريض عن الجور على الإمام في حقوقه الشرعية له بعد

---

(١) طبقات ابن سعد ج٧: ١٧٠.

(٢) العقد الفريد ج٣: ٢٥٥ – ٢٥٦.

(٣) طبقات ابن سعد ج٧: ١٣١، ١٥٦، ١٥٧.

وفاته، وفي حقوق بنيه الدينية والاجتماعية[1] في حياتهم.

وينتقد عبد الله بن محيريز التابعي الزاهد الصدوق الخلفاء الأمويين في انتهاك الحرم وقتل مصعب بن الزبير قائلاً لهم: لقد عطلتم الثغور، وأغزيتم الجيوش إلى الحرم وإلى مصعب ...[2]، والعجيب هنا أنه كان يوجه هذا القول إلى سطوة عبد الملك بن مروان، وحدثنا ابن شهاب الزهري أنه حضر مجلسا للوليد بن عبد الملك، فلما تُلي قوله سبحانه ﴿ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾[النور: ١١] قال الوليد: هو علي، فرد ابن شهاب: أصلح الله الأمير ليس كذلك بل أخبرني عروة عن عائشة رضي الله عنها أنها نزلت في عبد الله بن أبي بن سلول[3].

ونستخلص من هذه النصوص أن الزهاد كانوا أصحاب جرأة في الحق، وأنهم لم يميلوا ميلاً عاطفيًّا ينسيهم الدفاع عن الحرمات والأنفس، ولم ترهبهم القوة أو تثنيهم عن نقد ما يرونه مخالفًا لمنهجهم السني.

كما أنهم انتقدوا الخلفاء في المسالك السياسية والفكرية، وصححوا لهم ما اعوج من آرائهم، وما تعمده صغار الأمويين من طمس للحقائق بعد المائة الأولى، الأمر الذي يحدونا إلى القول بأن الزهاد كانوا مخلصين للمنهج السني وللاتزان الذي أخذوا به أنفسهم في جميع المواقف.

---

(١) الحلية ج٢: ١٣٠.

(٢) طبقات ابن سعد ج٧: ١٥٧.

(٣) الحلية أيضًا ج٣: ٣٦٩.

زهاد الشام والقول بالقدر

أكاد أجزم بأن القول بالقدر قد سبق رحيل غيلان من البصرة إلى الشام؛ لأن رجلاً من أهل الشام أبلغ عبد الله بن عمر سلام صاحب له فرد ابن عمر بلغني أنه قد أحدث حدثًا فإن كان كذلك فلا تُقرأ عليه السلام[1]، ومما أن القصة ساقها الإمام الشاطبي في حديثه عن القدر فمن المؤكد أن الحدث الذي أحدثه الشامي هو القول به، وكذلك أرسل عبد الملك بن مروان (٨٦هـ) إلى واصل بن عطاء يسأله عن القدر والجبر[2]، فهذه الأحداث تدل على أن فكرة القدر عرفت بالشام مبكرًا قبل ذهاب غيلان إليها، ولعل هذا هو الذي شجعه على أن يولي وجهه شطر هذا الإقليم لذيوع فكرته به؛ ولكونها قد تمهدت لها أسباب انتشارها.

وينبغي أن نعلم أن قدوم أبي مروان غيلان إلى الشام كان قبل خلافة عمر بن عبد العزيز أو في أثنائها؛ لأنه ثبت أنه ناقش غيلان ودعا عليه كما سنذكر قريبًا وبناء على هذا فيكون الأوزاعي قد أخطأ حين قرر أن قدومه كان في خلافة هشام بن عبد الملك (١٠٥ – ١٢٥هـ)[3].

وأيضًا يجب العلم بأن فكرة القدر كما نادى بها غيلان وجدت لها بين الشاميين معتنقين من أمثال ثور بن يزيد الكلاعي الذي عده ابن سعد ضمن القائلين بالقدر، وسعيد بن بشير الذي تحول من البصرة هو الآخر إلى الشام وتوفي بها (١٧٠هـ) وكان قدريًّا، أما مكحول الدمشقي فيروي ابن سعد أنه

---

(١) الاعتصام للشاطبي ج٢: ١٣١.

(٢) العقد الفريد ج١: ٢٠٥.

(٣) طبقات ابن سعد ج٧: ١٧٠ – ١٧١، ١٦١.

كان يقول بالقدر ولكن جاء الخطيب البغدادي فقرر أنه رجع عنه[1].

ولقد تصدى عمر بن عبد العزيز لغيلان وناقشه طويلاً. ثم احتج عليه بقوله سبحانه: ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾[الإنسان: ٣] فلم يلق لها بالاً فدعا عليه عمر قائلاً: اللهم إن كان كاذبًا فاقطع يده ورجله ولسانه واضرب عنقه[2].

كما أفحمه الأوزاعي حين سأله عدة أسئلة انتهت بأن أمر هشام بتنفيذ دعوة عمر بن عبد العزيز فيه، وكذلك حارب أبو قلابة عبد الله بن زيد الجرمي البدع والأهواء عامة قائلاً: ما ابتدع رجل بدعة إلا استحل السيف[3]، وقال: لا تجالسوا أهل الأهواء ولا تحادثوهم فإني لا آمن أن يغمسوكم في ضلالتهم أو يلبسوا عليكم ما كنتم تعرفون، وكأن الزهاد حسبما رأيت هم أخلص العلماء للنزعة السنية، وأكثرهم تحمسًا لها، وهو ما جعلهم يحاربون غلو العاطفة، وشرور العقل في كل مدرسة من المدارس.

طابع الزهد في الشام

إذا وقفنا أمام أقوال زهاد هذه المدرسة، وأمعنا النظر في صبغة سلوكهم وجدناه زهدًا هادئًا لم يجمح في عاطفة من العواطف، ولم يبالغ في مسلك من المسالك، ورأيناه كالزهد الكوفي في الاعتدال القائم على العلم والفقه، إلا أن الزهد في الكوفة لم يخلُ من المبالغة وجموح العاطفة أحيانًا، وكان الاعتدال فيه خطة متعمدة لمحاربة نزعات فكرية واجتماعية شاذة.

---

(١) تاريخ بغداد ج٢: ترجمة مكحول (حرف الميم).

(٢) العقد الفريد ج١: ٢٠٦.

(٣) الحلية ج٢: ٢٨٧ – ٢٨٨.

أما الاعتدال هنا فقد نشأ من كون الزهد ليس حركة مقصودة، واتجاهًا أساسيًّا، ومنهجًا للحياة؛ لأن غالب زهاد الشام علماء أصلاً ككعب الأحبار، ومكحول، وابن شهاب الزهري، وأبي عمرو الأوزاعي، وجاء زهدهم نوعًا من الخلق الذي يدعو إليه العلم ويحث عليه، أو هو فرع من فروع القربات التي يتطلبها الفقه في الدين والتي تعتبر ثمرة من ثماره دون أن يكون سبيلاً إلى غايات الشوق والحب. حتى عند أبي مسلم الخولاني وعمر بن عبد العزيز مع أنهما هما الزاهدان البارزان اللذان عمدا إلى الزهد عن قصد، واتخذاه مسلكًا إراديًّا مستقلاً وطريقًا في الحياة نراه عندهما أيضًا منفصلاً عن غايات الصلة المباشرة بين العبد وربه، مرتبطًا بالنجاة فقط، مقصورًا على التشدد نوعًا ما في التقلل وفي الطاعة، وعلى الشعور بالخوف دون التطلع إلى الرجاء فضلاً عن الحب والعشق.

على حين نراه في المدارس الأخرى السابقة وليد عوامل عامة ومحلية، ومسلكًا رئيسيًّا يحتاج إلى ما يخدمه ويقويه، ونزعة حقيقية لها مقوماتها وخصائصها البارزة، وسبيلاً لغايات روحية مرسومة في عمق السالك.

وهذا الطابع الذي تميز به زهد الشام لم يلق اهتمامًا كبيرًا من الباحثين، ولم يحدث لديهم ضجة كالتي أحدثتها حركات الزهد في المدارس الأخرى، ولم تستمل مشاعرهم ولا مسالكهم عواطف الدارسين ولا أنظارهم، كما أنه لم يبرز فيهم محبون أو متجردون على غرار ما رأينا سلفًا، ولم تنشأ ظواهر ذات سمات خاصة نختلف حول تعليلها وإرجاعها إلى مصادرها الأصلية.

ومع كل هذه الملاحظات فإننا نستطيع أن نحصر ملامح هذا الزهد بشكل عام في التقلل القائم على الكفاية والتعفف وعدم الحاجة إلى سؤال الغير كما ظهر من نهي كعب عن المسألة[1]، ومن حال عمر بن عبد العزيز في كفايته بما عنده

(١) الشعراني: الطبقات الكبرى ج١: ٣٩.

عن أجر الخلافة قائلاً: إن مالي يغنيني[1]، وكذلك كان مكحول والزهري والأوزاعي.

وأما مجاهداتهم فكانت نوعًا من الإكثار في الطاعة: صلاة وصوم وتلاوة بلا إيغال، إذا استثنينا عبادة أبي مسلم وعمر بن عبد العزيز، ومع شدتهما لو وازنا بينهما وبين المجتهدين في مدارس البصرة لوجدنا أنهما أهدأ بالنسبة إلى غيرهما، ولم يهيج مشاعرهم سوى الخوف حتى إن كعبًا كان إذا رأى النار قال: أواه منها[2]، وقالت امرأة عمر بن عبد العزيز لم أر أحدًا من الرجال أشد خوفًا من الله تعالى من عمر[3] وكان جل مرضه من كثرة الخوف[4] وكثيرًا ما كان مكحول يجأر: رب باعد مكحولاً من النار[5].

صبغة الطابع إسلامية

ومع القول بأن الهدوء الذي ساد الزهد الشامي لم يُثر اهتمام الباحثين بشكل صاخب على نحو مدرستي البصرة والكوفة إلا أنه أعطانا حقيقة غالبة وقمينة بأن تستوقف النظر وتستوجب الذكر، وتتلخص في أن الاعتدال الذي هو طابع الإسلام في عمومه وخصوصه يعتبر من أقوى الأدلة على أن الحياة الروحية في الشام لم تتأثر بالرهبنة المسيحية أدنى تأثر لا في رسوم الزهد ولا في جوهره وحقائقه.

ويكفينا أن نرجع إلى كتب الطبقات والتراجم عن ابن سعد، وابن خلكان،

---

(١) القضاعي: الشهاب ١٠٤، ١٠٣.
(٢) طبقات الشعراني ج١: ٣٩.
(٣) نفسه ج١: ٢٩.
(٤) نفس المصدر السابق ج١: ٢٩.
(٥) طبقات ابن سعد ج٧: ١٩٦.

والخطيب البغدادي لنقرأ بدقة وتمعن أخبار وأقوال الزهاد الذين ترددت أسماؤهم على الصفحات السابقة، وننظر في زيهم وعبادتهم وطرائق زهدهم سنجدها لا تعدو الصلاة والصوم والتلاوة والخلوات التي لا تقتصر على مكان بعيد، ولا تعتمد على طقوس وآداب تقليدية كما هو الحال في الأديرة.

وسنحس وندرك ونذوق معًا أنها إسلامية صادقة في شكلها وموضوعها؛ حتى الذكر الذي يعد لونًا من ألوان القربات التي غلبت على كل من كعب، وأبي مسلم، ومكحول، والأوزاعي[1] لا يرجع إلى أسلوب الذكر المسيحي ولا إلى الأثر الإرادي أو العفوي له، وإنما يرجع في الأصل إلى عاملين.

الأول: ما جاء في القرآن من آيات تحث على الذكر كقوله سبحانه ﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ ﴾[البقرة: ٥٢] وكقوله ﴿ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ ﴾، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۝ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾ [الأحزاب: ٣٥، ٤١ – ٤٢]، وما جاء على لسان رسول الله ﷺ كقوله: «**مثل البيت الذي يذكر الله فيه والبيت الذي لا يذكر الله فيه مثل الحي والميت**»[2]، ومثل: «**لأن أقول سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر أحب إليّ مما طلعت عليه الشمس**».

الثاني: كما ترجع إلى نزعة أبي الدرداء التي غلبت عليه في المدينة، ورحل بها إلى الشام، ونادى فيهم: إن الذين ألسنتهم رطبة بذكر الله عز وجل يدخل أحدهم الجنة وهو يضحك[3]، وقد رفعه عن عتق العبيد؛ لأنه عتق لرقاب الذاكرين أنفسهم؛ ولأن يكبر العبد مائة مرة أحب إلى أبي الدرداء من التصدق

---

(١) انظر أيضًا طبقات الشعراني ج١: ٣٩، وحلية الأولياء ج٢: ١٢٤.

(٢) التاج ج٥: ٨٧ رواه الشيخان، ٩٩، رواه مسلم والترمذي.

(٣) الحلية ج١: ٢٠٨ – ٢١٩.

بمائة دينار؛ ولذا كان أكثر عمله وأفضله التفكر والاعتبار، حسبما حدثت زوجته، فلا يعقل بعد هذا أن يزعم الزاعمون أن نسبة الذكر في الشام إلى المسيحية أدنى من نسبته إلى الإسلام لتضافر الأدلة على أن ألوان الزهد ترجع إلى فرائض وفضائل هذا الدين الحنيف.

وبجانب ما ذكرنا فإن معظم الزهاد من أصل عربي كما بينا، وأبرزهم نزح إلى الشام زاهدًا مستوفيًا لشروطه قبل أن يقف على أنظمة الزهد المسيحي وتقاليده المرسومة، ونخص من بين هؤلاء النازحين أبا مسلم الخولاني، وعمر بن عبد العزيز، وهما بحق صلب الزهد الشامي ورئتاه.

على أن هذا لا يعني اتهام من انتسب إلى دين آخر قبل إسلامه ككعب الأحبار الذي كان يهوديًا، أو اتهام من ينتمي إلى أصل غير عربي مثل مكحول بن شهراز بن ساول الهروي جدا الكابلي جدة[1].

أما بالنسبة إلى كعب الأحبار بن ماتع (٣٢هـ) فإنه لكي يتضح أمامنا حاله وصدقه يجب أن ننظر فيما نسب إليه من رواية وفي درجة ثقته، ونستطيع أن نلخص آراء العلماء بتركيز حول هذه النقطة في وجهتي نظر محددتين.

أولاهما: وجهة من يمحص روايته عن الكتب السابقة، ويرى المنصفون من هذا الفريق أنه بذاته غير كاذب استنادًا إلى قول معاوية: هو من أصدق هؤلاء المحدثين الذين يحدثون عن أهل الكتاب وإن كنا مع ذلك لنبلو عليه الكذب[2] ودرجة الصدق عائدة إلى ذاته التي تسوق الروايات بلا تدخل فيها بالتحريف أو تعمد الكذب؛ ولذا فإن جاءت صادقة موافقه لما عندنا فهو صادق وإن كذبت

---

(١) تاريخ بغداد ج٢: ترجمة مكحول (حرف ميم).

(٢) صحيح البخاري ج١: ١٣٦.

فهو كاذب في عرف اللغة فقط[1] لا من حيث ذاته لعدم تعمده ذلك من نفسه، وكذب الخبر لغة لا يؤدي إلى تجريح الراوي لعدم توافر عنصر القصد عند القاضي عياض[2]، وإنما يوقع العهدة عن من سبق كعبًا ويجعله مجرد ناقل، وعلينا نحن أن نرفض هذه الأخبار جملة لعدم حاجتنا إليها كما سبق بيانه، وأن نمحص -إن رأينا الأخذ ببعضها- فيما يخدم غرضًا من الأغراض العلمية، ووافق القسطلاني القاضي عياض، وحكم بأنه: لم يرد أنه كان كذابًا، وما دام كذلك فهو من خيار المحدثين عند ابن الجوزي.

وثانيهما: النظر إليه من حيث روايته في الإسلام، ويفتي أصحاب هذه النظرة بجواز سماعه والأخذ عنه محتجين بسماع عمر له، ودخوله على عائشة وتبادل السؤال والجواب معها، وسؤال أبي هريرة وابن عباس له، ولأن معاوية أيضًا يعتبره أحد العلماء ويقول عن علمه: إنه كالثمار[3]، وبالتالي فهو في نظر هؤلاء ثقة خاصة وأن ابن حبان ذكره في كتاب الثقات[4].

وبناء على ما ورد في النظرتين نرى أنه في أفكاره ونزعاته الأخلاقية عامة، وفي زهده بصفة خاصة كان صادقًا مخلصًا، وحاله منسجم مع شهادة هؤلاء الصحابة وأجلاء العلماء، وأنه تجنب التقليد لدينه السابق في كل اتجاهاته، وبذا أشبه عبد الله بن سلام في تحريه الحق منذ بدء إسلامه، وفي روايته عن الكتب السابقة بلا دس ولا كيد، وفي اعتداله على شرعة الإسلام ومنهاجه.

واختلف عن عبد الله بن سبأ بالكلية لخبث هذا وحقده وحنقه وتعمده

---

(١) ابن كثير: التفسير ج٢: ٢٩٤.

(٢) إرشاد الساري للقسطلاني ج١٠: ٣٩٨.

(٣) تفسير ابن كثير ج٥: ١٦٤، ٢٣٦، ٦، ٦٤ ج٦ ٤٦٨ ج٧: ٢٨ – ٢٤٣.

(٤) القسطلاني إرشاد الساري ج١٠: ٣٩٨.

الإفساد، كما أنه لم يتبين لنا أثناء قراءتنا لترجمته في المصادر التي رجعنا إليها فيما يتصل بالزهد شيء يخالف ما عليه الزهاد المعاصرون له، والمتسمون بالاعتدال والاتزان والإخلاص لوجهة النظر الإسلامية.

وإذا وصلنا إلى مكحول الدمشقي المتوفى (١١٢ أو ١١٣هـ) وجدناه إسلاميًّا من ظفره إلى مفرق رأسه؛ لأنه كان مولى لعمرو بن سعيد بن العاص، ثم وهبه لرجل من هذيل بمصر، ومنذ ذلك الحين وهو مجد في طلب العلم والفقه من مظانه؛ حتى حصل كل ما سمع في مصر، ثم رحل إلى المدينة والتقى هناك بعلمائها وفقهائها السبعة خاصة سعيد بن المسيب، ثم رحل عنها إلى الكوفة وهناك صحب القاضي شريحًا، وتعلم منه طريقة الفتوى والقضاء.

وأبرز عبارة كان يختم بها رحلته إلى هذه الأماكن الثلاثة هي قوله: فما خرجت منها؛ حتى ظننت أنه ليس بها علم إلا وقد سمعته[١].

وإذن فهو من الناحية العلمية مسلم نقي لم تشب علمه شائبة، وهو كذلك في زهده لم يخرج عن أحاديث التوكل والخوف والاستغفار والذكر[٢]، ولم يتطرق إلى الآثار الأجنبية بالمرة، الأمر الذي جعل الزهري يعده في مصاف أكبر علماء عصره وزهادهم إذ يقول: العلماء أربعة: سعيد بن المسيب بالمدينة، والشعبي بالكوفة، والحسن البصري بالبصرة، ومكحول بالشام[٣].

كما أنه أستاذ الأوزاعي والعلاء بن الحرث، وسعيد بن عبد العزيز، وله آراء بجوار آراء الصحابة وكبار التابعين في كتب التفاسير، ولم يستقر مكحول

---

(١) تاريخ بغداد ج٢: حرف الميم وطبقات ابن سعد ج٧: ١٦٠ – ١٦١.
(٢) تفسير ابن كثير ج٤: ٣٥٨ ج٧: ٤٣٧ وطبقات ابن سعد ج٧: ١٩٦.
(٣) وفيات الأعيان ج٣: ١٧٧، ١٢٧.

بدمشق إلا بعد رحلات علمية إسلامية واسعة، وبعد أن استقرت اتجاهاته واستقامت نزعاته.

وأخيرًا فإنما سقت نموذجين من نماذج زهاد الشام هما محل الظنة، بخلاف غيرهما فلم يشك أحد في إخلاص وعلم وسلوك ابن شهاب الزهري، أو الإمام الأوزاعي، وبالتالي فقد كان زهد الشام زهدًا إسلاميًّا صرفًا لم تمسسه أية مسحة أخرى وهو ما يتفق مع قوة الدين الجديد وعظمة الفاتحين؛ ولأن التأثر بأفكار الغير لا يكون إلا في فترات الضعف والتفكك، وضعف الوازع الديني كما وجد في القرن الثالث الهجري عندما أخذت الدولة العباسية في سبيل الانحدار.

أبرز السمات لطابع الزهد الشامي

ليس معنى ما قلناه في الطابع العام للزهد في هذه المدرسة أنه كان هادئًا معتدلاً لا يتسم بالبروز في مجالات تثير حفيزة الدارسين أنه قد خلا من خصائص جديدة تضاف إلى سجل الخصائص المطرد للزهد الإسلامي في جميع المدارس، وإنما نجد له سمتين بارزتين: إحداهما نفسية، والأخرى لفظية اصطلاحية:

(١) **السمة النفسية**: أود أولاً أن أفرق بين نظرة زهاد الشام إلى النفس والمدخل الذي دخلوا منه إليها وبين طريقة التحليل التي سارت عليها مدرسة الحجاز، حيث ندرك أن مدرسة الحجاز اهتمت بالصفات الظاهرة للنفس وما تحوي في فضائل، وركزت على دفع الزهاد والمسلمين عامة إلى التحقق بها[1].

بينما نرى هنا أن مدرسة الشام دخلت إلى الباطن، واهتمت بالعمق وبتدريب الإرادة تدريبًا يبعث فيها التحول من الضعف إلى القوة، كما لمست طبيعة النفس ذاتها من حيث توقانها الدائب وتعشقها لما تهواه.

---

(١) ارجع إلى أول من هذا البحث.

وقد بدأ زهاد مدرستنا هذا الطريق النفسي من نقطة معينة هي لفت الأنظار أولاً إلى الاهتمام بالنفس والعلم بها، وتوجيه السالك إليها باعتبارها مبعث كل صفة ومرجع كل سلوك، وإلى مداومة البحث عن قصدها من العمل وغايتها فيه، وتحويل نظره من نفوس الآخرين إلى نفسه هو؛ لكي يقف الإنسان على مدى إخلاصها في العلم ابتداء، ومقدار تجرد الغاية من النفعية الدنيوية انتهاء.

وما أريد أن أركز عليه هو أن مدرسة الشام قد سلكت مسلكًا خاصًّا في الحديث عن النفس، وركزت بشدة على المكامن، والدوافع والقصور والنوايا، والعواطف، مع ظواهر النفس ونشاطها ووجهت السالك إلى كل هذا كي يدرك الاستقامة على الطريق الشرعي السوي وصولاً إلى ما يغي، وإلى هذا أشار أبو قلابة عبد الله بن زيد الجرمي في قوله: إذا كان الإنسان أعلم بنفسه من الناس فذاك قمن أن ينجو، وإذا كان الناس أعلم به من نفسه فذاك قمن أن يهلك[1].

والعلم المجرد الذي لا ينتقل من المعرفة بها إلى الترويض والمجاهدة علم قاصر لا يفيد ولا يثمر، ولكن النافع منه هو الذي يهتم بالوقوف على عللها وآفاتها، ثم يعمد إلى قلعها وتطهيرها بالتهذيب والتأديب، وبالإضافة إلى هذه النقطة فعلى البصير بنفسه أن يدرك جانبين هامين في النفس:

أحدهما: أنها هي التي تدفع البدن على العمل، ثم تقوم باللوم والتأنيب بعد ذلك، أي أن القوة الشهوانية منها مثلاً تدفع على المهلكة، ثم بعدما يقع الفعل، وتمدأ عواطف الشهوة الجامحة تنبري القوة العاقلة التي غلبت في لحظة ما إلى اللوم والتعنيف.

والعاقل من يُخضع تلك لهذه دائمًا، كما قال أبو مسلم الخولاني: أرأيتم

(١) الحلية ج٢: ٢٨٤.

نفسًا إن أكرمتها ونعمتها ووادعتها ذمتني غدًا عند الله، وإن أنا أسخطتها وأنصبتها وأعملتها رضيت عني غدًا، قالوا: من تيكم يا أبا مسلم؟ قال تيكم نفسي والله[1].

وثانيهما: على العبد أن يعرف أن النفس تواقة دائمًا إلى شيء ما، وإزاء هذا فلزامًا لنجاته أن يحول توقانها من التعلق بالفاني والأدنى إلى التعلق بالباقي والأسمى؛ لكي يبقي النفس على طبيعتها بلا كبت ولا إسقاط، ولكي يجعلها تتنفس بهواء يحييها الحياة الأبدية المنعمة، الأمر الذي قصد إليه عمر بن عبد العزيز حين حول مشتهيات نفسه من الدنيا وزينتها إلى الجنة ونعيمها مستشعرًا ما تتوق إليه نفسه من ميل إلى كسب منفعة بصفة مستمرة[2].

وقد ضرب لنا الخليفة الزاهد مثلاً رائعًا في تبديل التوقان من الأدنى للأعلى عندما عمد إلى عملية تدريب نفسية هادئة انتقل أثناءها من الترف والغنى الفسيح إلى الزهد والتقشف، ومن لبس الحرير إلى لبس الخشن، ومن الاستمتاع بالنساء إلى تسريحهن ما عدا زوجته فاطمة، ومن الاقتصار على الأركان الضرورية في الطاعة إلى حمل النفس على العبادة والكثرة فيها؛ حتى استقامت واستعذبت هذا اللون[3].

ويمكن أن تكون هذه العملية التي تدربت فيها الإرادة تدريبًا دقيقًا نبراسًا لكل غني يهتدي على ضوئه ويحتذي متنه، وتستند تلك الحالة على قول كعب بن مالك بعد أن تاب الله عليه لتخلفه عن غزوة تبوك: يا رسول الله إن من

---

(١) نفسه ج٢: ١٢٧.

(٢) وفيات الأعيان ج٢: ٦٠، ٦١.

(٣) انظر تفصيل هذه العملية في مروج الذهب ج٢: ٦٢٦ من نفح الطيب والعقد الفريد ج٢: ٢٧٨ والطبقات الكبرى للشعراني ج١: ٢٩.

توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله ورسوله؟ فقال رسول الله: «**أمسك عليك بعض مالك فهو خير**» هذا إذا كان من حلال، أما إن كان حرامًا أو فيه شبهة فلا بد من رد المظالم إلى أربابها والخروج عنه إلى أصحابه، كما تعتمد حالة الخروج عن النساء على قول رسول الله لنسائه ﴿ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْأَخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٢٨، ٢٩].

(٢) **السمة اللفظية**: وتعتبر مدرسة الشام من أكثر المدارس استعمالاً للرموز والتشبيهات في حديثها عن الزهد سابقة بذلك اللغة الصوفية الاصطلاحية، وأول من برع في هذه الاستعمالات أبو مسلم الخولاني مثلما شبه جماعة رآهم فحسبهم يتحدثون في الدين فمال إليهم فلما وجدهم اجتمعوا على الدنيا قال لهم: مثلي ومثلكم كرجل أصابه مطر غزير وابل فالتفت فإذا هو بمصراعين عظيمين فقال: لو دخلت هذا البيت حتى يذهب عني هذا المطر، فدخل فإذا البيت لا سقف له، جلست إليكم وأنا أرجو أن تكونوا على ذكر وخير فإذا أنتم أصحاب دنيا[1].

وقال: إن الخيل البدن لا تصل الغايات والخيل الضمرات هي التي تستطيع الوصول إلى أهدافها رامزًا بذلك إلى أصحاب الأبدان والمتع لا يفوزون في سباق الدنيا إلى الآخرة، والذين خفت أبدانهم بالصيام، وخفت أوزانهم بالقيام والطاعة هم وحدهم الذين يقدر لهم النجاة والفوز بالجنة، كما استعمل كلمة الرأس كرمز للخليفة والبدن كرمز للرعية.

ونصح زوجته قائلاً: يا أم مسلم سوي رحلك فإنه ليس على جهنم معبر،

(١) الحلية ج٢: ١٢٣، ١٢٧، ١٧٤.

أي استعدي بالعمل والاستقامة.

ورمز مكحول إلى نقاء الباطن بطيب الريح وإلى طهارة الظاهر بنظافة الثوب[1]، وإنما شاعت هذه الاستعمالات بين هذه المدرسة دون غيرها لما قلناه من أن الشام بلد الخيال وسمو العاطفة، وهما أمران يثمران رقة اللفظ وحسن التشبيه.

(١) طبقات ابن سعد ج٧: ١٩٦.

obeikandl.com